الاســاليب

للاستاذ امين الخولى

المدرس بكلية الاداب

فى مصر اليوم أساليب تمتاز بامتياز البيئات ، وتختلف باختلاف الثقافات ، ويذهب كل أناس باسلوبهم لايعدلون به اسلوبا ، ولا يرضون ، منه بديلا ، بل لايرون له مثيلا ؛ ونحن بين ذلك كله فى حيرة مما نأخذ وندع

وما أعنى الاساليب الادبية ولا الأنماط الفنية ، فلعل الامر فى ذلك هين يسير ، انما أعنى أساليب التفكير ، وطرائق التعقل ومذاهب الناس فى تقرير الحقائق ، وتقبل مايقبلون منها ورفض ما يرفضون . تتمثل فى مصر اليوم بيئات فكرية متعددة ،وطرائق تهذيب مختلفة الاصول متباعدة الأسس ، حتى لترى المسلمات المقررة عند فريق ، تنكر فى عنف بل فى سخرية أحيانا عند آخرين ، ونحن على هذا فى مفترق طرق متشابكة ؛ وشباننا الآخذون سبل الحياة فى حيرة ، لايجدون معالم واضحة ، ولايدرون أين يذهبون ، وحين يلتمس أولئك الشبان الحقيقة من هداة أدلاء يحملون الاقلام فى هذا البلد لايجدون الامن يداوى الاختلاف بالفرقة ولاتستقر الحياة الفكرية لامة هذا شأنها . وإذا كانت مصر قد خلصت من تعدد العناصر ، وتكاثر اللغات ، واختلاف الاديان والنحل فانها لما تظفر بوحدة المزاج النفسى ، وتجانس الأسلوب الفكرى ؛ وليس ذلك على أمة ناهضة بايسر خطرا وأهون شأنا من النواحى الاخرى فى الاختلاف

وماجردت اليوم قلمى لأكتب سدا لفراغ أو تلبية لطلب كما كثر مايكتب الآن ، بل تأثرا بحالة أشهدها كل يوم حين أغدو وأروح بين الجامعتين الازهرية والمصرية ، وأعانيها كل يوم مع هؤلاء الشبان الذين لايكاد يهون معهم التفاهم المنظم ، بل يشق ويعسر إن لم أقل يستحيل. أرى فى الجامعتين محافظين مسرفين ، ومجددين مسرفين ، وقد أرى هؤلاء حيث لايتوقع ان أراهم ، وأجد أولئك حيث لايدور بخلدى ان تقع عينى عليهم، كما أرى فى الناحيتين من لم يتجددوا ولم يحافظوا ، ولكل اسلوب فكرى مضطرب فاسد ينتهى به الى نتائج تزيد مسافة الخلف بينه وبين الآخرين . وما إخال القارئ فى حاجة الى شىء من المثال على ذلك ، فهو واجده حيث يرسل بصره ، ويصيخ بأذنه ، جليا واضحا فى صحافتنا اليومية والاسبوعية والشهرية ، وفى أنديتنا ومجامعنا ، وفى المناقشة تجرى بين متعلمين فى أى مكان ؛ وهى حال لاينخدع عنها أحد مهما تجاهلها ؛ يشعر بها كل ذى أسلوب من تلك الاساليب فتجد صداها فى أسف صاحب القديم أسفا عميقا على مايكون من طيش أولئك الذين لايبرءون عن الهوى والنزق ، ولايعفون من الاثم فى دينهم ووطنيتهم. كما تجد صورة ذلك الافتراق فى ضجر المشتطين وتبرمهم بتلك التقهقرات التى تصيب التدرج العقلى ، وتعوق الحرية الفكرية ؛ وفى سخطهم على هاتيك الرجعات التى تنتكس بها النهضة ; وكما تجد هذا الافتراق فى الاساليب عند المترددين بين الطريقين المحاولين التوسط، حين يقصون من الجديد ويمطون فى القديم ، يرجون ان يتقابل هذا وذاك ويتوافقا ؛ فى كل هؤلاء تجد أساليب من التفكير مختلفة ، فتشعر فى ألم باضطراب كياننا الفكرى ، وتجد هذا الاضطراب يزداد شدة وخطورة ، حين تتحكم فى التفكير نزوة سياسية ، أو يصل أصحاب الرأى حبلهم باعتبارات دينية ، عندذلك يشتد اضطراب اسلوب الفكر حتى يصير قلقا مزعجا وانتكاسا عجيبا ، والويل كل الويل للحقيقة ؛ بل الويل كله لشبابنا خاصة حين يضيع منه جيل وجيل ضحية هذا الاضطراب ، وحين يقبع الخائفون من هوى السياسة ، ومجازفة أهل الدين ، فيسكتون طمعا فى السلامة ؛ أو يروجون لما هو فى سريرتهم خطأ بل ضلال . فتضيع الحقيقة ويضيع الشبان قربانا لهذا الحذر وحب السلامة .

لقد أخشى ان يتلكأ قلمى أو يتوقف حين ثارت ذكرى هذه التهديدات ، فيؤثر الاخلاد الوديع الى الهدوء ؛ لكنى حاملته على ألا يفعل ، وماض فى نقد تلك الاساليب مهما غضب أصحابها ومصطنعوها مبتغيا وجه الحقيقة وحدها . غير ملوث ماأقول بشىء من هذه المهاترة التى تسود جو المناقشات عندنا فتكون شرا على شر .

١

فى مصر نفر أسلوبهم الفكرى ان يضعوا العقل فى مكان الانسان من يد الموت كما يشبهه طرفة بن العبد فى قوله :

لعمرك إن الموت ماأخطأ الفتى لكا لطول المرخى وثنياه باليد

يحول العقل فى مسارح الكون على ان يظل حبله فى يدهم ، أويد الدين كما يفهمونه هم لا كما هو فى طبيعته وحقيقته ، فحيث خلوه سرح ، وحيث كفوه انكف ، وحيثما هزوا حبله فهو خاطىء . وتقول لهم ان عنيتم بهذا التحكم فى العقل أنه عاجز عن استكناه كل شىء

والنفاذ الى صميم الحقائق كلها فنحن معكم ، لكن دعوا العقل يشعر من نفسه بهذا العجز ، ولاتفرضوا عليه العجز فرضا وسيطرة ؛ بل دعوه يعرفه بالتجربة ، فيأبون إلا أخذه بالحبل . وتنبئهم ان مسالك العقل فى الوصول الى الحقائق مختلفة ، ومنها مالاسبيل الى رد نتائجه ، ولاحيلة فى نقضها ، فهو حين يعتمد التجربة ويحدث عن واقع لاخبر لكم فى مناقشته ، ولاسبيل لكم الى كفه ، وان تفعلوا فهو متمرد يخشى عليكم خطره ، فيأبون ألا الحبل . تتحدث اليهم مثلا عن تدرج المعارف البشرية وترقيها ومايشاهد من مظاهر ذلك البارزة فى طبقات الناس ، فيجبهونك بأن آدم أبو البشر قد علمه الله الاسماء ـ وعلمه الله المسميات أيضا ـ وهو رسول ، فليس يصح بعد ذلك ماتقولون من هذا التدرج . وليس الامر عندهم ألا ان رأس الدنيا فى قدمها وعقلها فى عقبها ؛ ولايجديك ان تفرق بين الخبرية الخلقية النفسية ، والمعرفة العلمية ؛ ومهما تساهلت أو تنازلت لاتصل منهم الى رضا واطمئنان . يسمعون ان الكائن المادى والمعنوى يتأثر ببيئته ؛ ويتبادل التأثير مع جميع ماحوله ؛ فلا يرضون ان يكون الفقه الاسلامى مثلا قد جرى عليه ذلك واصابته هذه الفضيحة ! ويضربون الارض برءوسهم معلنين أنهم لن يسمحوا بان يقال ذلك .

مثل هذا الاسلوب خاطىء . يضيع مايريد الدين ان يخفف به غلواء العقل ونزقه ، ويزج أصحابه بالدين فيما ليس من شأنه ؛ ويضيعون معالم الأشياء ، وحدود الحقائق ليوجدوا تحكما فى العقول البشرية ، ويبنوا لها محابس ويضعوا عليها أغلاقا ؛ وقد طبعها الله وثابة نفاذة متغلغلة محلقة

٢

وفى مصر قوم أسلوبهم ان يرسلوا العقل ، أوقل يرسلون أنفسهم إرسالا ، فيقولون بالظنة ، ويحكمون بالشبهة ، ويقطعون بالبداء ، ويجزمون باللمحة ؛ هذا إذا كان الحكم لهم ، فان كان من غيرهم طلبوا من الدليل مالايطلب ، وجعلوا العقل التجريبى ; فى موضع الظنى ، فتارة يقلبون الحقيقة ، فكما يسمون النتيجة التجريبية علما ، يسمون النتيجة النظرية علما ، ويسمون الفرض الاضطرارى علما ، ويسمون الحل المؤقت الذى يبعثه العجز عن الحقيقة الصحيحة علما ، فيزعمون ان ذلك كله من مملكة العقل التى هو فيها حر مسيطر ليس لأحد ان يحد من سلطته. يريدون ان تكون الحقيقة الطبيعية ، والنتيجة الرياضية ، والرواية التاريخية والخاطرة الفنية ، كل أولئك عمليات علمية لافارق بينها ؛ ولها جميعا ان تضرب وجه الدين ، وتصفع قفاه ساخرة فى غير حياء ولاتقدير حتى لآداب اللياقة ؛ وطورا على اساس هذه التسوية الغريبة يرون ان العلم أذا لم يلمس وجود شىء فليس موجودا ، ولايصح لعاقل ان يتحدث عنه ، ومادام الأله لم يختبر فى المعمل فلا معبود ولادين ؛ يشكون والشك حق فطرى لاينكر عليهم ؛ لكنهم لايلتمسون الادلة كما هى الخطوة الاولى بعد الشك ، بل يطرحون ماشكوا فيه ويهملونه . وكذلك يفعلون حين يشتبهون ويقوى فى تقديرهم الاشتباه ، فيعدون اشتباههم آية عجز كل محاولة للاثبات ، وفشل كل دليل ، فيطمئنون الى بطلان مااشتبهوا فيه ؛ . وتقول لهم ان الاسلوب التجريبى لايقبل مادون التجربة مادامت مستطاعة ، فاحتكموا إليه متى أمكن ، وهاتوه اذا مادعيتم : أولا فأحسنوا تقدير مادونه من الادلة ، فأساليب البحث مختلفة ، ولكل فرع اسلوبه ؛ ونحن فى أساس التجمع ، ونظامه ، والتشريع له ، وفى حقبة الحق ، وخبرية الخبر ، وغير ذلك لانملك التجربة ولا المعادلة الرياضية فنثبت بماعداها ونسلم ؛ فلاهم مثبتون بالتجربة إذا ادعوا ، ولاهم قابلون من غيرهم مثل دليلهم إذا ادعى ؛ وتحدثهم عن ان بطلان الدليل لايستلزم بطلان المدلول ، وان مانجهل أكثر مما نعلم فيسخرون بهذه العبارات القديمة ؛ ويناقضون انفسهم فى تقرير مايرفضون مثله ، ورفض مثل الذى يقررون .

ذلك اسلوب خاطىء ؛ لايحدد قيم المعلومات ، ولايطلب لكل دعوى دليل مثلها ، ويضيع معالم الحقائق فى النفس ، فيخضع الانسان للفرض والظن اخضاعه اياه للمجرب المطرد فيفسد التقدير ، ويسلح اعداء الحرية الفكرية باغلاط اولئك المتحررين خطأ ، ويضيع هيبة العلم . ويعكر مابينه وبين الدين ، بل مابين العلم والاخلاق مما له اثره العنيف الخطر فى حياة الجماعة

٣

فى مصر من اسلوبهم ان يهجموا على مخالفهم فى الفكرة قبل تأييد فكرتهم ؛ ولو كان هذا المخالف يتناول الموضوع من غير الناحية التى يتناولونه هم منها ، وبطريق غير طريقهم ؛ فتراهم يوازنون بين الفكرتين ويفاضلون بين الرأيين ؛ ولما يبحثوا اولا يدلهم بان يبحثوا إلا واحدا منهما ؛ بل هم لم يفرغوا بعد من بحثهم وتأييد رأيهم ، ويريدون ذلك بألا يجعلوا الموازنة علمية ، بل يقلبونها موازنة خلقية أو فنية ، فلا يبينون الخطأ ولكن يقولون هذا تغرير أو هذا سخيف وما الى ذلك مما يغضب ويؤلم ، دون أن

(البقية على صفحة ٤٢)